



التربية على نشدان العدل

من هدي رسول الله
صلى الله عليه
وسلم في التربيـ

الهيلالي

الحديث:

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا يَلْبَثُ الْجَوْرُ بَعْدِي إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَطْلُعَ، فَكُلَّمَا طَلَعَ مِنَ الْجَوْرِ شَيْءٌ ذَهَبَ مِنَ الْعَدْلِ مِثْلُهُ، حَتَّى يُؤْلَدَ فِي الْجَوْرِ مَنْ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ، ثُمَّ يَأْتِي اللَّهُ بِالْعَدْلِ، فَكُلَّمَا جَاءَ مِنَ الْعَدْلِ شَيْءٌ، ذَهَبَ مِنَ الْجَوْرِ مِثْلُهُ، حَتَّى يُؤْلَدَ فِي الْعَدْلِ مَنْ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ"¹.

تقديم

هذا الحديث العظيم أخرجه الإمام أحمد في أول مسند البصريين عن سيدنا معقل بن يسار. أورده المحققون وشرح الحديث في باب الفتن وهو يدخل في الأحاديث المبشرات التي تصدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي تبشر بغد الإسلام وانتشار العدل والأمان والاستقرار في بلدان المسلمين بعد طول جور وظلم وتسلط واستبداد. كما يعتبر الحديث من البشارات العظيمة للعاملين في حقل الدعوة ليزدادوا يقينا على يقين أن أيام العدل آتية لا ريب في ذلك وإن طال زمن الجور والاستبداد والطغيان. كما أن الحديث يدخل في مجال الإخبار بالمغيبات. ويحمل الحديث إشارة لطيفة في كون الحق والباطل في تدافع مستمر، وأن عمر الباطل والظلم ساعة، في حين أن عمر الحق والعدل إلى قيام الساعة. ويستدل بالحديث في تأصيل السياسة الشرعية²، ومحورية مسألة العدل في الحكم بمنظور الإسلام. ويحمل أيضا إشارة واضحة لما يحدثه الناس في الدين والحكم من جور واستبداد (الانكسار التاريخي) بعد فترة النبوة، ثم ما ستؤول إليه الأمور من رفعة للأمة وقوة بعد ضعف وعزة بعد ذل وعدل وحق بعد جور وظلم واستبداد.

¹ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م، 423-422/33.
² قواعد الاجتهاد في السياسة الشرعية: دراسة تاريخية تأصيلية مستقبلية، عبد الصمد الرضى، دار عالم الكتب الحديث، 2010، ص: 48.

انفرد الإمام أحمد بتخريج هذا الحديث العظيم بسند صحيح، وإن كانت آيات وأحاديث أخرى تعضد هذا الحديث وتؤكد معناه ومنها:

فمن الآيات القرآنية:

- (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) سورة النور، الآية: 55.

- (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) سورة الروم، الآية: 47.

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) سورة محمد، الآية:

7.

ومن الأحاديث:

- «تَكُونُ النَّبُوءَةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةُ عَلَى مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةُ عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوءَةٍ ثُمَّ سَكَتَ»³.

- «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَنْدَخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بَعْرٌ عَزِيزٌ أَوْ بَذْلٌ دَلِيلٌ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَدَلًّا يُدِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ» وَكَانَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ، يَقُولُ: " قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الدُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجَزْيَةُ"⁴.

- «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»⁵.

- «إِنَّ اللَّهَ زَوَى⁶ لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا رُويَ لِي مِنْهَا، وَأَعْطِيتُ الْكُزْنَينِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ»⁷.

³ رواه الإمام أحمد بسند صحيح عن حذيفة بن اليمان، 355/30.

⁴ الإمام أحمد عن تميم الداري، 154/28.

⁵ متفق عليه، صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، 2239/4.

⁶ زوى = قبض وجمع

- «إِنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلَاثٍ خِلَالٍ: أَنْ لَا يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهْلِكُوا جَمِيعًا، وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ، وَأَنْ لَا تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ»⁸

راوي الحديث:

هو الصحابي الجليل مَعْقِلُ بْنُ يَسَارَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْبَرِ بْنِ حَرَّاقِ بْنِ لُؤْيِ بْنِ كَعْبِ الْمَزْنِيِّ الْبَصْرِيِّ، صاحب رسول الله، شهد بيعة الرضوان وكان هو الذي يرفع أغصان الشجرة عن وجه رسول الله وهو يبايع الناس تحتها. رُوي عنه أنه قال بايعناه على أن لا نَفَرَّ. يكنى أبو عبد الله، وقيل أبو يسار، وقال ابن سعد في الطبقات (يكنى بأبي علي ولم يكن بهذا من قبل أحد سواه)؛ شهد الحديبية، وولاه عمر بن الخطاب إمرة البصرة فحفر بها النهر المنسوب إليه، فيقال: نهر معقل.

حدث عنه: عمران بن حصين والحسن البصري، وأبو المليح بن أسامة، ومعاوية بن قرة المزني، وعلقمة بن عبد الله المزني، وأبو عثمان التَّهْدِي، و عمرو بن ميمون الأودي وآخرون. وأحاديثه في الصحيحين والسنن الأربعة.

قال الحسن البصري: دخل عبيد الله بن زياد على معقل بن يسار يعود في مرضه الذي مات فيه، فقال له معقل: إني محدثك حديثا سمعته من رسول الله، لو لم أكن على حالتي هذه لم أحدثك به، سمعته يقول: «من استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام».

الحديث:

* لا يلبث:

اللام والباء والثاء حرف يدل على تمكث. يقال لبث بالمكان أقام. قال الله تعالى: (لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)^{9 10}.

ما لبث أن فعل كذا¹¹ ما أبطأ أو ما تأخر عن فعله.

*

الجيم والواو والراء أصل واحد وهو الميل عن الطريق¹².

⁷ سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتَانِي (المتوفى: 275هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 97/4.

⁸ سنن أبي داود، 98/4.

⁹ سورة الأحقاف، الآية: 35.

¹⁰ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، 228/5.

¹¹ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، عبد السلام هارون، دار الدعوة، 212/2.

جار عن القصد والطريق مال وعدل، جار في حكمه ظلم¹³.
الجور¹⁴: نقيض العدل والجور ضد القصد والجور الميل عن القصد

*حتى يطلع

طلع بدا وظهر من علو، طلع هجم وأتى فجأة¹⁵.
الطاء واللام والعين يدل على ظهور وبروز. ويقال طلع علينا فلان إذا هجم¹⁶.

من معاني الحديث

يدخل هذا الحديث الشريف في مجال المبشرات والنبوءة. يخبر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن الأمن والعدل والاستقرار الذي تنعم به الأمة في زمانه صلى الله عليه وسلم لن يطول حتى يظهر في الأمة ويهجم فجأة الجور بمختلف معانيه: الميل عن العدل والظلم والاستبداد....، وكأن الرسول عليه السلام يُهَيِّئ أصحابه ومن بعدهم ويحذرهم فيقول مستعملاً مفردات دقيقة: لا يلبث=لا يتأخر، حتى يطلع=يهاجم الأمة.

ولقد وردت هذه المعاني في الحديث الشريف: (لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِأَلْتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلَهُنَّ نَقْضُ الْحُكْمِ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ)¹⁷، ويبين صلى الله عليه وسلم أن العدل والظلم لا يتعايشان في مجتمع واحد، بل إذا ظهر وعلا أحدهما غاب الآخر، وهذا مصداق قول الله تعالى: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) سورة الإسراء، الآية: 81. وهذه إشارة واضحة لأهل الحق والعدل أن تفريطهم وسكوتهم عن المطالبة بالعدل والحق، إنما هو إيدان بانتشار الباطل واستئساد أهل الجور والظلم والطغيان.

إن الحديث الشريف يؤكد الصراع الأبدي الأزلي بين الحق والباطل، والعدل والجور. وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً.

ويحمل الحديث بشارة عظيمة فحواها أن العقوبة والخاتمة للعدل والحق وأهله، وقد قال الله تعالى مؤكداً هاتاه الحقيقة: (إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) سورة هود: الآية: 49.

¹² مقاييس اللغة، ج. 1، ص 492

¹³ المعجم الوسيط، ج. 1، ص 146

¹⁴ لسان العرب، ابن منظور، ج. 4، ص 153.

¹⁵ المعجم الوسيط، ج. 2، ص 568.

¹⁶ مقاييس اللغة، ج. 3، ص 419.

¹⁷ مسند الإمام أحمد عن أبي أمامة، 485/36.

ومن المعاني الرئيسية في الحديث الشريف التي تدعم معنويا المستضعفين والمربين والعاملين في حقل الدعوة أن الأيام دُولٌ فقد قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) سورة آل عمران، الآية: 140.

:

يشمل هذا الحديث الشريف وكل الأحاديث عبرا بليغة للأمة عامة وللمربين والدعاة والمستضعفين خاصة منها:

1. تربية الثقة في وعد الله وموعود رسوله:

فقد وعد الله وأوجب على نفسه نصر المؤمنين، وما أحوج الأمة إلى من يبث فيها الثقة بالنصر والتمكين وسيادة العدل واندحار الجور والاستبداد.

2. تداول الأيام سنة ثابتة في الكون:

ومن هذا على المربين والدعاة أن يغرسوا في الأجيال روح المبادرة والتدافع والتنافس وعدم الاستسلام للباطل والجور وإن تمكن في الناس ساعة فمصيره إلى زوال. ويؤكد الواقع المعيش هذا الأمر.

3. عدم إغفال الجانب الغيبي في تربية الثقة وانتظار الفرج والنصر:

يشير الحديث إلى هذا الأمر/ الجانب القدري الغيبي بوضوح: ثم يأتي الله، فالفاعل هو الله ولا راد لقضائه وقدره (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)، (له الحكم وإليه ترجعون). وفي الحديث القدسي: (عبدني أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد). إن التركيز على الجانب الغيبي وأخذ به عين الاعتبار يرسخ التسليم لمشئة الله ويبعد المتعلمين والعاملين عن اليأس والقنوط ويزرع في النفوس كمال التأدب مع إرادة الله جل جلاله. فما علينا إلا أن نعمل ولا نستعجل الثمرة، إذ ذلك يتوقف على مشئة الله وقدره.

4. محورية العدل في المنظومة الإسلامية:

قد يستغني الإنسان عن الطعام واللباس، ويتنازل طوعا أو كرها عن حاجيات أساسية، ولكن العدل ومختلف الحقوق لا مجال للمشاحة فيها. العدل أساس نجاح الأنظمة والمؤسسات والمشاريع، كما أنه أساس الاستقرار وشرط ضروري للتواصل والتجاوب بين الحاكم والمحكومين. وقد خصص ابن خلدون رحمه الله فصلا بين فيه أن الظلم مؤذن

بخراب العمران¹⁸ جاء فيه: (ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل).

إن مجتمعا يؤمن أفراده - حكاما ومحكومين، مسؤولين وعاملين، أفرادا ومؤسسات- أن الجور والظلم نذير بالخراب وانفراط عقد الاستقرار والأمن الاجتماعي لن يوجد به حتما مظلوم ولا جريمة ولا حقد ولا كراهية.

إن كل محاولات الإصلاح التي تتجاوز وتتغافل عن هذا الشرط تذهب هباء وسمى وتفوت على الأمة فرصة للتغيير.

إن العدل من القيم والمبادئ التي يسهل اجتماع الناس عليها. وقديما اهتبل الشعراء والمبدعون في نشدان العدل والتخويف من الجور والظلم والعسف. ومن أعجب ما قيل¹⁹ في وصف مجتمع يسوده العدل:

لا يظلم الذئب شاة البر ليس لها راع سواه وقد أودى به النهم
هذا الذي قيل في أمثال من سلفوا من كثرة الأمن يمشي الذئب والغنم

5. أهمية التبشير بالأمور الإيجابية:

من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التبشير والفأل الحسن إذ قال عليه السلام: «بَسِّرُوا وَلَا تُنْقَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»²⁰، بل من كمال سنته التبشير في وقت الشدة، فعن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»²¹.

هذا الحديث نموذج رائع في التبشير بأيام زاهرة للأمة عنوانها العدل وإعطاء كل ذي حق حقه. وهذه هي وظيفة المربين والدعاة والمدرسين: غرس الأمل، التبشير بالمأمول، عدم الإحباط. وسامح الله بعض المربين الذين يرضعون الأجيال اليأس من العدل ومن الرخاء والصلاح والإصلاح، ولا يرون إلا سوادا في سواد!

¹⁸المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، الفصل 43: في أن الظلم مؤذن بخراب العمران، المكتبة العصرية، بيروت، ص 262.

¹⁹ من شعر التقي الغزي

²⁰ أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري، 1398/3.

²¹ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ، 20/9.

6. التربية ع

من الدروس المحورية المستخلصة من هذا الحديث الشريف تربية الأجيال على نشدان الحق والمطالبة به، فما ضاع حق وراءه طالب، والساكت على الحق شيطان أخرس. وبداية التغيير المطالبة بالحقوق المكفولة في الدساتير والمواثيق الدولية ومنها المطالبة بالعدالة والمساواة أمام القضاء، وتلكم هي ميزات الحضارة الإسلامية في عهودها الزاهرة حيث اعترف العدو قبل الصديق بعدل الإسلام، ورضي الله عن الصحابي القائد ربعي بن عامر حامل الرسالة الذي قال صارخا في وجه رستم أمير الفرس: " نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها".

إن هذا الحديث الشريف يبشر الأمة بزمان العدل والحق، وإن طال زمن الجور والفساد والاستبداد. إنه أيضا تربية للدعاة والمصلحين والمربين لسلوك منهج التبشير والتدرج وتقديم الأسباب واحترام سنن الله تعالى في الكون والخلق. كما أن الحديث تكريم ورفعة لشأن العدل في المنظومة الفكرية والسياسية والاجتماعية في الإسلام، كيف لا والرسول الأكرم فضّل يوما واحدا من حاكم عادل على عشرات السنين من العبادة فقال: (يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة)²². وإن نشدان العدل والعمل على تحقيقه لهو من صلب الدين والسياسة الشرعية في الإسلام.

²² أخرجه الطبراني عن ابن عباس في المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 337/11.